



سيرة الخليفة الحاج مصطفى بن أحمد بن التهامي

أ. صلاح الدين بن نعوم

باحث في التاريخ والحضارة الإسلامية

تعريفه

هو الشيخ سيدي مصطفى بن أحمد بن التهامي بن أحمد بومعزة بن عبد الله بن سحنون بن أحمد بن محمد بن سيدي أحمد بن علي الغريسي التركماني الحسيني المكي المدني، المولود حوالي سنة 1796 م بدوار أولاد القاضي بسهل غريس من حاضرة معسكر، وقد عرف رحمه الله نفسه، وبين مذهبه في الفروع والأصول، في آخر تقريره لبعض التأليف، فقال: "محمد المصطفى بن أحمد بن التهامي، المالكي الأشعري، المغربي الغريسي نجارا، الوهراني تعلمًا، ثم الدمشقي دارا، الحسني الحسيني نسبا وشعارا"⁽¹⁾.

نشأته

حفظ الشيخ مصطفى بن التهامي القرآن الكريم وتعلم مبادئ الدين واللغة على يد والده شيخ الجماعة العلامة أحمد بن التهامي، وأخذ العلوم عن علماء عصره بمعسكر ومازونة ووهران، فتفقه في علوم الدين، وتضلّع في السيرة، وتفنّن في علوم

اللغة، وتنسك في التصوف.

مشيخته

حلّاه الشيخ الشطي الشامي فقال: "العالم العلامة والحبر الفهامة، كان إماماً نحريراً مفنناً في العلوم النقلية والعقلية؛ تفسيراً وحديثاً وفقها ولغة، فرداً في العلوم العربية، أديباً شاعراً عابداً زاهداً"⁽²⁾، وعارفاً بعلم السير والأنساب، وحلّاه العلامة الشيخ أبو حامد العربي المشرفي فقال: "فهو شفع لسيبويه في النحويات، له الفهم الثاقب والرأي الصائب، لا يجارى في علم العروض وفي المعقولات... وإليه المرجع في علم المشكلات، له القصائد الموزونة الطنانة"⁽³⁾، ومثله المفتي بلهاشمي بن بكار الذي وصفه بـ "الإمام الكبير، الرئيس الخطير، البحر الطامي سيدنا الحاج مصطفى ابن التهامي"⁽⁴⁾، وفي ذكر الشيخ العربي شنتوف للعلامة بن عبد الله سقاط المشرفي قال: "أما سيدي بن عبد الله سقاط فحدث عن البحر ولا حرج... كان لا يقارنه إلا الشيخ مصطفى بن التهامي بن عمنا الصدر الأعظم للأمير عبد القادر"⁽⁵⁾.

تولى الشيخ مصطفى التدريس في وهران والشلف، حيث يقول العلامة أبو حامد المشرفي: "درّس في علم المعاني والبيان، وحضرنا مجلسه في رسالة الوضع درسها بالأصنام"⁽⁶⁾، ومن أبرز تلامذته في هذه المرحلة الشيخ الطيب بن المختار⁽⁷⁾.

جهاده ضمن مقاومة الأمير عبد القادر

وَجَّهَ الشيخ مصطفى فيما بعد للعمل السياسي والعسكري بأمر من الأمير عبد القادر⁽⁸⁾ فكُلف في بادئ الأمر بكتابة رسائل الأمير في ديوان الإنشاء ورئاسته⁽⁹⁾، والذي من أدواره أيضاً ضبط أمور مجلس الشورى العالي الأميري

وتوثيق قراراته التي تعتبر بمثابة القوانين الأساسية لتسيير الدولة، ثم كلفه الأمير عبد القادر بمنصب الخلافة على مقاطعة العاصمة معسكر بعد مقتل الخليفة السابق السيد محمد بن فريجة المهاجي بداية سنة 1834م، حيث أدى الحاج مصطفى بن التهامي القَسَم على صحيح البخاري، ليصدر مباشرة مرسوم التعيين الذي حرّره ديوان الأمير⁽¹⁰⁾. يقول الشيخ أبو حامد العربي المشرقي الكرطي في هذا الصدد، وكان معاصراً للأمير وخليفته: "تولى الخلافة بالنيابة عن الحاج [الأمير] عبد القادر على قبائل بني عامر، وجبال ولهاصة، واطرارة، وسواحل ندرومة"⁽¹¹⁾، كان أول ما بدأ به السيد مصطفى التحقيق في قضية مقتل الخليفة السابق، الذي ظهر فيما بعد أنه قُتل بالخطأ، ليتفرّغ بعد ذلك لتنظيم العساكر وتجهيزها وتمويلها، من خلال الآغوات الذين وضعوا تحت تصرفه، متبعا في ذلك تعليمات الأمير عبد القادر، زيادة على صلاحيات إدارية أسندت إليه وقت السلم.

أهم أدواره في منصب الخليفة

زادت أهمية منصب الخلافة الذي تقلده السيد مصطفى بن التهامي من خلال التعليمات المهمة التي أسندت إليه، فقد كلفه الأمير بعد حصار عين ماضي أو آخر سنة 1838م بالتفاوض مع التجاني، فأدى دوره على أكمل وجه، وتمّ الاتفاق على خروج التجاني من عين ماضي وإنهاء الحصار، ثم كلفه بتعيين وبناء حصن عسكري جنوب اليعقوبية (سعيدة)، وقيادة الجيوش المحمدية في المدينة والجلفة وبوسعادة والمسيلة ومجانة وسطيف وبسكرة وغيرها، ومن أهم المعارك التي قادها بن التهامي،

معركة واد السكاك في 06 جويلية 1836م، ثم معركة مزگران في 3 فيفري 1840م، وهو أول هجوم بعد حرق فرنسا لمعاهدة التافنة، قاده الخليفة مصطفى بن التهامي، وتعرض فيه لخسائر بسبب مدفعية العدو الأكثر فعالية، ثم قاد الجيش المحمدي بتاريخ 13 جويلية 1841م في معركة سيدي دحو، وأبلى فيها البلاء الحسن، وحين عودته إلى حصن سعيدة في شهر أكتوبر من نفس العام نصب كمينا للمحتل قضى فيه على 22 فرنسيا و11 جريحا، ثم شارك في معركة سيدي إبراهيم بتاريخ 23 سبتمبر 1845م، وهي المعركة التي قُتل فيها العقيد مونتانيك، وبعدها مباشرة نصب كمينا بناحية عين تموشنت ضد قوات العقيد كافنيك المتوجهة إلى تلمسان، فكان مصيرها الأسر وغنيمة آلتها، وُضمت إلى أسرى معركة سيدي إبراهيم الذين بلغ عددهم حوالي 300 أسير، وتولى مسؤولية الدائرة وحراسة الأسرى بن التهامي، رغم أن الدائرة التي تضم النساء والأطفال والجرحى كانت في أشد ضعفها لقلّة المؤونة والذخيرة، فضلا عن هجرة بني عامر إلى المملكة المغربية، خسر خلالها بن التهامي 1200 فارس و800 جندي. (12)

راسل الأمير عبد القادر الجنرال لامورسيير بخصوص الأسرى الفرنسيين الثلاثمائة، إلا أنه رفض أي تفاوض أو دفع فدية لتحريرهم، وأصرّ على فك أسرهم بالقوة، ومع زيادة الخطر على الدائرة من جراء الاشتباك مع الجيش المغربي من الغرب والمحتل الفرنسي من الشرق، زاد قلق الخليفة بن التهامي وهو المسؤول الأول على الزمالة لغياب الأمير في ذلك الوقت، مع بلوغ أبناء عن هجوم فرنسي مغربي مرتقب لتحرير الأسرى، مع العلم أنّ الخليفة بن التهامي لم يكن معه من

القوات ما يكفي لحماية الزمالة، ومخافة من تحرير الأسرى بالقوة قرر بتاريخ 26 أبريل 1846م ذبح معظم الأسرى الفرنسيين الثلاثمائة، ولم ينجوا منهم إلا خمس أو سبع فرنسيين، وبطبيعة الحال فإن الأمير لم يكن له علم بما أقدم عليه الخليفة، فوبّخه حين عودته إلى الزمالة، وفي نفس الوقت دافع عنه ضد الرأي العام الفرنسي الذي اتهمه بارتكاب مجازر، ويا عجباً من يتكلم في المجازر وهم أساتذتها، فقد كانوا قبل عامين قد أبادوا قبيلة أولاد ارياح عن آخرها، وما خفي أعظم، كما أن الأمير قد حمل الفرنسيين المسؤولية لتعتهم ورفض التفاوض في شأن الأسرى والإصرار على تحريرهم بالقوة. (13)

في 1847م وبعد أن استنفذ الأمير الوسائل والأدوات التي تدعمه في المقاومة، فضلا عن سيطرة فرنسا على أهم مدن الغرب الجزائري، واستمالة بعض القبائل، وإخضاع البقية بالقوة وإنهاكها بالضرائب والعقوبات، وقلة المؤونة والرجال، قرر الأمير بعد استشارة رجاله إعلان وقف المقاومة.

لقد كان الخليفة مصطفى بن التهامي نسخة من الأمير عبد القادر في جمعه بين العلم والجهاد، شديداً في نكبته على العدو، لدرجة أن الضباط الفرنسيين كانوا يخشون بأسه، ويرمون به بالتعصب الديني⁽¹⁴⁾، وليس ذلك إلا تمسكه بعقيدته ومبادئه وشدة بأسه على أعداء الله.

محتته في السجن

كان من بين ما اتفق عليه الأمير مع المحتل الفرنسي هو إخلاء سبيله ليرحل إلى

الإسكندرية، إلا أن المحتل كعادته نقض العهد وسير الأمير ورفاقه إلى السجن بفرنسا، وبدأت محتنهم مع رفاق الأمير. في سجن أمبواز اعتكف الشيخ مصطفى على تعليم رفاقه، فأقرأهم الصغرى للسنوسي في التوحيد وعلم الكلام، ورسالة محمد بن أبي زيد القيرواني في الفقه، كما كلفه الأمير بتربية أبنائه، وبها كتب تأليفه "مذكرات الأمير عبد القادر"، ونظّم بها غوثيته الشهيرة. ليرتحل الشيخ مصطفى ابن التهامي فيما بعد برفقة الأمير إلى بروسة التركية، ثم استقروا نهائيا بحاضرة دمشق الشام سوريا سنة 1856 م. (15)

الشيخ مصطفى بن التهامي في دمشق

استأنف الشيخ مصطفى نشاطه العلمي بدمشق الشام، وكان يُعرف لدى أهلها بمصطفى المغربي، فتصدر لفتوى المالكية والتدريس بالجامع الأموي، فدرّس التفسير وتفوّق فيه على نظرائه من العلماء (16).

وأخذ عنه الكثير من أهل الشام وانتفعوا به، منهم العالم الفقيه الصالح الشيخ صالح أفندي الأسطواني الدمشقي الحنفي، وإمام الحنابلة بالجامع الأموي، العلامة الشيخ عبد السلام الشطي البغدادي (17)، والشيخ الأمير محمد السعيد بن محي الدين الحسيني (18)، وابنه الأمير محمد المرتضى (19)، والأمير محمد بن الأمير عبد القادر بن سيدي محي الدين (20)، وغيرهم الكثير، فضلا عن مناظراته مع العلماء بدمشق، خاصة مع الأديب مصطفى التونسي، وكان الأمير عبد القادر يعجب بمناظراتهما في علوم اللغة. (21)

آثاره العلمية

ترك سيدي مصطفى بن التهامي آثارا علمية معتبرة، منها "سيرة الأمير عبد القادر وجهاده" و"شرح منظومة العقيقة" للشاعر الشعبي الشهير سعيد المنداسي، وأرجوزة من نوع "الغوثة"، صور فيها أوضاع الأمير ورفاقه بسجن قصر أمبواز، وتحتوي هذه المنظومة على 530 بيتا (22)، قال في مقدمتها: "ومما قلته مع الرضا، والتسليم للقدر والقضاء، متوسلا متضرعا، معترفا مشرعا، مفضلا في الوسائل تارة، راجيا النفع لي ولكل من دعا بها، مبتذلا ومؤملا حصول كشف الغمة"، ويقول في بعض أبياتها بعد أن توسل بالأنبياء والصحابة والتابعين والصالحين:

يا غوثَ وَقْتِنَا إِيَّاكَ يَشْكُو أَمِيرُنَا وَمَعَشَرَ فَيَبْكُو
يا صاحِبَ التَّضَرُّيفِ فِي الْأُمُورِ وَكَافِلًا بِشَأْنِكَ الْمَأْثُورِ
إِلَى جَانِبِكَ السَّنِيِّ أَشْفَعُ بِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ ثُمَّ أَرْفَعُ
وَسَيْلَتِي بِكَ إِلَى الشَّفِيعِ الْمُرْتَضَى - مُحَمَّدَ الرَّفِيعِ

وله قصيدة في رثاء العلامة الحافظ بن عبد الله سقاط المشرفي، يقول في مطلعها

إِزْمِ الدَّبَّاسِ وَخَلِّ ذَاكَ التَّعَلِّي إِنَّ التَّلَالَ مِنْ الْهَيَاءِ خَوَالِ

تنسكه

أما في الروحانيات، فلا يقل أمره فيها عن نشاطه العلمي، بحيث يروي عنه نسيبه السيد محي الدين الحسني، قال: "كان رحمه الله جلده عجيب في العبادة، ففي شهر رمضان من كل عام، كان بعد أن يصلي التراويح، ينفرد وحده في الجامع،

ويشعر في صلاة ركعتين يجتم فيها القرآن الشريف بتمامه، ويظل هذا دأبه في كل ليلة من الشهر، وما زال على تلك الحالة المرضية إلى أن قضى نحبه على رأس الثمانين بعد المائتين والألف، وكان الأمير عبد القادر غائبا في البقاع الحجازية" (23).

وفاته

توفي سيدي مصطفى بن التهامي بدمشق سنة 1283هـ / 1866م، ودفن بالتربة الذهبية من مرج الدحداح بدمشق الشام، وقد أرّخ وفاته الشيخ عبد السلام الشطي بقوله:

قَد مَاتَ شَيْخِي مَنْ غَدَا	يَزُوي أَحَادِيثَ النَّبِيِّ
حَبْرٌ هُمَامٌ نَاسِكٌ	وَمَالِكِيٌّ الْمَذْهَبِ
يَا طَالَمَا أَحْيَا الدُّجَى	فِي صَالِحَاتِ الْقُرْبِ
إِنَّ التُّهَامِيَّ مُصْطَفَى	مَنْ أَرَّخُوهُ الْمَغْرِبِيَّ (24)

المراجع

1. الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي، قسم التراجم، عالم المعرفة، الجزائر، ط1، 2013م، ج1، ص 141.
2. الشطي محمد جميل، أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر، دار البشائر، دمشق، ط1، 1994م، ص 283.
3. المشرفي العربي أبو حامد، اليواقيت الثمينة الوهاجة في التعريف بسيدي محمد بن علي مولى مجاجة، تح: حمدادو بن عمر والعربي بوعمامة، كتاب ناشرون، لبنان، ط1، 2012م، ص 87.
4. بن بكار بلهاشمي، مجموع النسب والحسب، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1961م، ص 139.
5. شتوف العربي بن عبد الله، الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى الحجاز، مخطوط بخزانة الشيخ محمد التهامي، معسكر، لوحة 63.
6. في اليواقيت الثمينة: "بالعصام"، والتصويب من: الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي، قسم التراجم، مصدر سابق، ج1، ص 135. أنظر أيضا: المشرفي العربي أبو حامد، المصدر السابق، ص 87.
7. بن بكار بلهاشمي، المصدر السابق، ص 144.
8. رابح خدوسي وآخرون، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، منشورات الحضارة، الجزائر، ج1، ص 46.

9. الجزائري محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر، المطبعة التجارية - غرزوزي وجاويش - الإسكندرية، 1903م، ج1، ص 103.
10. سهير حملاوي، الجوانب الاقتصادية والاجتماعية في دولة الأمير عبد القادر الجزائري، مذكرة ماستر في التاريخ المعاصر، شعبة التاريخ، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية قطب شتمة، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2014، 2015م، ص 27، 28.
11. المشرفي أبو حامد العربي، المصدر السابق، ص 87.
12. أنظر: سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار البصائر، الجزائر، طبعة خاصة، 2007م، ج 4، ص 183. وانظر: زاير عبد القادر، دور خلفاء الأمير عبد القادر في بناء الدولة الجزائرية، ماجستير، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2009-2010، ص 44-48.
13. سعد الله أبو القاسم، المرجع السابق، ج4، ص 183.
14. الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي، قسم التراجم، مرجع سابق، ج1، ص 135، 136.
15. رايح خدوسي وآخرون، المرجع السابق، ص 46.
16. المشرفي العربي أبو حامد، المصدر السابق، ص 87.
17. الشطي محمد جميل، المصدر السابق، ص 145-170.
18. رايح خدوسي وآخرون، المرجع السابق، ج1، ص 660.

19. الحسن بن أحمد بن محي الدين بن مصطفى الجزائري، نثر الدر وبسطه في بيان كون العلم نقطة، تح: أحمد فريد الزبيدي، دار الكتب العلمية، لبنان، ص 4.
20. سعد الله أبو القاسم، مرجع سابق، ص 119.
21. الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي، التراجع، ج 1، ص 139.
22. قال المفتي بلهاشمي بن بكار في مجموعه أنها تقرب من الألف بيت، وربما يقصد ديوانا آخر.
23. الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي، التراجع، ج 1، ص 135-137-141.
24. الشطي محمد جميل، المصدر السابق، ص 283.

